

يناهز المئة مليون نفس) دع عنك الصريين والبنفاريين عن بيزنطية كتابه وديانته وصناعاته. وعلى الجملة فقد كان البيزنطيون معني الصقالبة كما كان الرومان معني الجرمان.

مملكة العرب

الخلافة

الحنفاء - فتح الحارثون العرب في أقل من قرن (٦٣٠ - ٧١٣) بلاد آسيا حتى بنفوا نهر السند وجميع أفريقية الشمالية وأسبانيا وخضعت البلاد التي فتحت للحنيفة زعيمهم أمير المؤمنين خنيفة الرسول وأقام الخنيفة أولاً في المدينة المنورة مدينة الرسول (٦٣٠ - ٦٦٠) ثم في دمشق (٦٦٠ - ٧٥٠) ثم في بغداد عني عهد العباسيين وعند ذلك تجزأت المملكة فصار الحنفاء ثلاثة في ثلاث عواصم: بغداد في آسيا والقاهرة في أفريقية وقرطبة في إسبانيا دع عنك الولايات المنقطضة (مثل خراسان ومراكش) التي لم تكن تخضع للحنيفة قط.

والقاعدة أن ينتخب المؤمنون خنيفة بإمام من الله. قال يزيد للناس عندما بويع له: أيها الناس إني أعاهدكم أن لا أقيم قصرأ ولا أجمع من حطام الدنيا فإذا قتت بوعدي فعنيكم أن تبدلوا لي طاعتكم وتدافعوا عني بأنفسكم وإلا فأنتم في حل من بيعتي ولكن عنيكم أن تذكروني أولاً فإذا صحت فاقبلوا معاذيري وإذا عرفتم برجل خير تم أخلاقه يقوم لكم بما أقوم فاختاروه وأنا خاضع لد. وفي الواقع فإن انتخاب الخنيفة كان حراً خالصاً فتختار الأمة الخنف الذي يعينه الخنيفة السابق أو رؤساء القواد في قصر الخنيفة.

الحكومة - كانت الحكومة ساذجة للغاية. متوارثة خنفاً عن سلف وعنى الخليفة كل جمعة أن يصعد المنبر ويخطب الناس ويعظهم ثم تركت هذه العادة وكان عليه أن يستقبل القوم جالساً على عرش يحف به ذوو قرياه وأعظم دولته ولكن خليفة بغداد جعل له وزيراً يكون له خادماً ووزيراً أول يسند بحديثه ويغنيه ويلاعبه بالترد ويتوب عنه في الحكم. وهو أيضاً يقضي وقته في قصوره أو حدائقه بين نساته يحف به حرس من الجنود الأجور من الأجناب (ويدعوهم الحرس لأنهم لا يتكلمون العربية).

وكان لكل ولاية قائد لجيشها يحكمها وكثيراً ما ينتفض الخليفة وفي كل حاضرة قاض يقضي بين المسلمين على أسرع وجد بدون كتابة ولا معاملة وذلك بمراعاة أحكام القرآن والعدل. ويقال عدل قاض يريدون به العدل الموجز. وكانت العرب كالرومان يتركون الشعوب الخاضعة لهم مستعينين بحقوقهم ومحاكمهم بل أسأفتهم (وكان في خلافة بغداد وحدها ٢٥ أسقفاً مطراناً) ويتركون المسيحيين يقومون كما يشاءون بشعائرهم الدينية مكشفين منهم بتأدية الجزية فقط وأن يحترموا المسلمين وأن لا يحملوا السيف ولا يبيعوا الخمر ولا يقرعوا نواقيسهم كثيراً ولا يتنون أناجيلهم بصوت جهوري.

المذاهب - لما كان بين الشعوب المختلفة التي دانت بالإسلام كثير من الاختلاف في الأخلاق لا يتأتى معد أن يقوموا بواجباتهم على مثال واحد انقسموا إلى عدة مذاهب فقدماء المؤمنين في العادة ولاسيما العرب منهم يؤمنون مع القرآن بأحاديث الرسول وما أثر عن أصحابه وآله فيعززون الكتاب بالسنة ومنهم اشتق اسمهم أهل السنة. لا جرم أن هذه الأحاديث التي قبلت بسائق سرعة التصديق المعهودة في الشرقيين لا يرد عهدها إلى محمد (فقد أقر أحد الوضاعين الذي قتل سنة ٧٧٢ بأنه وضع ٤٠٠٠

حديث) ولكنها مع ذلك من أصل عربي. إما المذهب الناقص لهذا فقد تالف بعد مقتل علي فأبي أهدد الاعتراف بخلفاء الأمويين في سورية ونبذوا الحديث وزعموا أنهم يتسكون بالقرآن فدعا العريقون في الإيمان هؤلاء المخالفين شيعة أو رافضة وكان معظمهم قد أسنوا حديثاً وأكثرهم من الفرس فنزجوا الإسلام ببقايا دين زردشت القديم وادخلوا فيه حكايات واحتفالات ومعتقدات تكرهها العرب وجعل أكثرهم استنارة بكثرة تفسير القرآن وفنسة مجازية من الدين مثل صوفية الفرس حتى لقد شهبوا هؤلاء بالإباحين وكان من أمر السواد الأعظم كرهاً بالأمويين أن اتخذ من أخلاف علي حتى الرسول آل بيت إلهي وقالوا أن الخليفة غاصب وأن الزعيم الحقيقي من آل بيت علي وفيه السر الإلهي وهكذا جاء اثنا عشر إماماً عاشوا خامنين في المدينة ثم انقرض آل البيت فكانوا يتوقعون زمناً خروج الثاني عشر وهو محمد من مغارة بالقرب من بغداد حيث كان محتباً غنى ما يقولون ومنذ ذلك العهد أخذوا ينتظرون إماماً يأتي ذات يوم لمقاومة الشر بمعونة عيسى وينقي السلام على الأرض وفي كل مساء يضرعون إليه أن يظهر قاتنين تمثل لنا أيها الإمام فإن الإنسانية في انتظارك لأن الحق والعدل هنكنا والأرض مننت جوراً وظلماً. وهذا المسيح يسنونه المهدي (أي الرجل الذي يسوقه الله) وقد ظهر كثير من المهديين منذ القرن العاشر ولاسيما بين مسلمي أفريقية وأنشأ أحدهم خلافة في القاهرة وأسس آخر دولة الموحدين في مراکش وقام لعهدنا مهدي جديد آخر في السودان (١٨٨٤).